سبعون

للكتابة الصحافية شبه اليومية منذ عام ١٩٦٨، ذكريات لا تغيب عن ذهني وقلبي، فهي دائماً نصب عيني وخاطري، لأنها أصبحت جزءاً من كياني، وفصلاً مهمّاً من سيرة حياتي.

لم أكن في طفولتي أحمل لعبة أعبث بها، أو دمية تستهويني حمرة خدّها، وزرقة عينيها، وانسدال شعرها الذهبي، بل كان يشدّني قلمٌ وقطعة من الورق اخطّ عليها أشياء مبهمة، لا هي حروف فتقرأ، ولا رسوم فتسترعي الانتباه، وتدلّ على ميلي إلى الرسم.

وكان والدي الأديب متري مدير المطبعة البولسية في حريصا سحابة ٥٢ سنة، لا يترك الكتاب من يده، حتى يقف على كل محتوياته، ويفهم كل شاردة وواردة فيه ويُعمل القلم الأحمر تصحيحاً فيه للغة وتدقيقاً. كتب والدي وترجم وأتيح له أن يتقن علم الفراسة وعلم قراءة الكف وسواهما الكثير!..

كان لأبي فضل كبير عليَّ، وضع هو وآباء «بيض» أمامي الكتب والمراجع التي تشعرني بالمتعة الروحية وتعلّمني المفردات اللغوية وتنمّي فيَّ قوة الذاكرة، وتجعل في ذهني مئات ومئات من المترادفات.

لم أبلغ الثالثة عشرة من عمري، حتى بدأت أنظم الشعر المحكي. وسرعان ما قرأت القرآن الكريم وأعمال كبار الكتّاب فرحت أتعمّق في فهم المعاني السامية وإدراك الحكم المنزلة من السماء، لأستطيع أن أكون منشئاً مجيداً أضع الكلمة في الموضع الملائم من العبارة، تماماً كما يضع الجوهري الماهر الحجر الكريم في المكان المخصَّص له من العقد الثمين. القرآن الكريم يدعو إلى المودّة بيننا وبين المسلمين، ويمجّد السيدة مريم وابنها المسيح عليهما السلام.

علّمنا الآباء خمس لغات، ولكنّ دربي عندما انطلقت لتدريس العربية في جامعة فرنسية في سنّي الواحدة والعشرين، تجلّى مملوءاً بالأخاديد والعثرات إلّا انّ الله منحني القوة والصبر والإيمان بالفوز، وأتاح لي أن اطّلع، في دراساتي العليا هناك، على منهجيات الكتابة والتفكير والتدقيق على السواء.

ويعرف الملمّون بتاريخ الصحافة، ان العالم لم يعرف صحافياً واحداً بقي على نسق الكتابة اليومية وإلى جانب وضعه خمسين كتاباً، سحابة حقبة طويلة أصدر خلالها خمسة آلاف مقال! فألف شكر، مع بلوغي سن السبعين، للّه على هذه النعمة الكبرى التي أنا «نعمانٌ» بها، والتي لا تقدَّر في نظري، بكل ما على الأرض من كنوز.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه